

الكشوف الجغرافية
دوافعها - حقيقتها

محمود شاكر

الكتب الاسلامي

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ

المكتب الاسلامي : بيروت : ص ٠ ب : ٣٧١ برقيا : اسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وبعد : لقد كتب عن الكشوف الجغرافية كثيراً ، كتب قديماً كما كتب حديثاً ، ولكن هذه المعلومات لم تكن سوى معلومات تقليدية تتحدث عن الكشوف وسيرها والطرق التي سلكتها والملاحين الذين قادوها ، ثم تبحث في العوامل التي دعت الى القيام بها ، والنتائج التي أدت اليها ، كل هذا حسب رأي أوروبا وتخطيطها للموضوع ، لا يختلف في ذلك قديم الكتابات عن حديثها غير ما تضيفه المعاصرة منها عن الكشوف التي تمت في الايام الاخيرة للمناطق القطبية وارتداد البقاع المجهولة وسط الغابات الكثيفة او الصحراوات المقفرة ، هذا مع العلم أن كثيراً من الكتب وخاصة ما يتعلق منها بالرحلات أو الجغرافيين ما تتحدث عن الوصول الى اميركا قبل كولومب والأوربيين أو الى رأس الرجاء الصالح قبل بارتلمي دياز والغربيين أو عن بحارة الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا من المسلمين غير قادتهم

الإيطاليين ، ولكن هذه الاخبار تنقل نقلاً مجرداً ، أو تعطي صفة الرواية والايخبار دون متابعة أو استنتاج وهذا لا يؤدي الى شيء ، ولا يصل بنا الى نتيجة نتوخاها أو معرفة نبتغيها . ورغم تقديرنا الى كل ما كتب ، واعترافنا بفضل الذين اسهموا في هذه الموضوعات ، فان هذه المعلومات التي أوردوها إن بقيت كما هي ، وكما أرادت أوروباً بالذات ، فاننا سنبقى في مكاننا لا نتحرك ، ولا نتقدم في كتابة تاريخنا بأنفسنا شيئاً ، وسنبقى تبعاً لأوروبا ومعلوماتها وتاريخها وكتاباتها ، نقلد دون ادراك ، ونأخذ من غير وضوح في الرؤية ، ونحاضر من غير روية ، ونتكلم من دون علم ، ونكتب دون مناقشة ، لا نختلف عن البدائيين إن لم نقل عن بعض أنواع الحيوان ، إننا بحاجة الى أن نناقش الفكرة قبل أخذها ، ونمحس الموضوع قبل عرضه على مجتمعنا وقبل تقديمه لأبنائنا وأجيالنا .

إن الدوافع التي دفعت أوروبا للقيام بما وصلت اليه لم تدرس بعد دراسة كافية من جميع جوانبها وخاصة التاريخية منها ، إننا لم نزل نأخذ الجانب الاقتصادي ونهمل الجانب الديني الصليبي ، وهذا الأمر هو الذي تؤكد عليه أوروبا ، إننا نريد أن نبحث هذا الجانب المهمل لتؤكد أو تؤكد أنه هو الأساس الذي دفع أوروبا للقيام بما وصلت إليه ، وأن الجانب الاقتصادي قد نتج عنه ، أو كان ظله أو الدرء الذي أخفت

أوروبا خلفه حقيقة وجودها خارج بلادها أو في مستعمراتها .
إن الدول الأوروبية قد دفعت الاسبان والبرتغال لقتال
المسلمين وأمدتهم بكل ما يحتاجون إليه حتى إن بحارتهم كانوا
من غير أبنائهم ، وكانت نتيجة ذلك الامداد ، وكانت نتيجة
تلك المساعدة أن استطاع الاسبان والبرتغاليون - واسفاه -
طرد المسلمين فعلاً من الاندلس وملاحقتهم في كل مكان ، وكانت
خطتهم تطويق المسلمين ، وأثناء تنفيذ الخطة تمت معرفتهم
لمناطق جديدة بالنسبة إليهم ، فانطلقوا فيها ، وأغرتهم
بغناها ، فانتقلوا من الحروب إلى جمع الثروة والتوسع في
أراض جديدة أو لازم أحدهما الآخر ، وهذا ما أثار عليهم
أصدقاء الأمس الذين حسدوهم في الاستعمار والتوسع ،
واتهموهم بترك المهمة الأساسية التي ساروا من أجلها ، والتي
تلقوا المساعدات الكبيرة في سبيل تنفيذها ، وهي قتال
المسلمين ، ولكن المغريات قد عطفت بهم الطريق ، وحولتهم
عن مهمتهم الأصلية بعض التحويل ، لذلك قاموا ينافسونهم ،
فحصل التنافس الاستعماري الذي طغى عليه الجانب
الاقتصادي ظاهرياً ، وجعل عليه غطاءً رقيقاً لم يكشف بعد ،
وإن كانت رؤيته لمن يعمن النظر من أصحاب الأبصار حيث
يمكن أن تظهر لشفافية الغطاء ، وعندها يبدو الاستعمار في
ثوب رجل دين نصراني يحمل الصليب ، ويكثر عن أنيابه ،
يريد أعمالها لتمزيق المسلمين .

هذا الجانب الاقتصادي أو التنافس الاستعماري قد طغى في النهاية على صورة الاكتشافات وأظهر الاستعمار على أنه ظل له ، وأنسى الكثيرين واقعه الحقيقي ، فكتبوا عن الاستعمار وأثره على البلاد وأهدافه وغاياته والوسائل التي اتخذها ، ولولا دعم الاستعمار للمبشرين وسياسته الواضحة في ذلك ، تلك السياسة التي فتحت نافذة تشرف على حقيقة الاستعمار لولا ذلك لبقى غامضاً نسبياً ، وقد أطل بعضهم على الاستعمار من هذه النافذة فرأى جانباً من حقيقة الاستعمار ، فتكلم على خوف ، وأوجز عن ضعف ، فكانت صورة ناقصة غير كافية ولا وافية .

وكلما مرت الأيام كشفت عن حقائق أكثر وصور أوضح بحاجة لإضافة بعضها الى بعض لتتكامل صورة الاستعمار الحقيقية في أذهان الناس ، وعندئذ لا يرون إلا الصليبية بحقدتها البشع ، وأنيابها البارزة ، وأعمالها الوحشية ، وطمسها للحقائق ، وإخفاء كل أثر لغيرها وخاصة إن كان أثراً اسلامياً ، وقصر كل شيء علمي أو أثر فني عليها وعلى أبنائها .

أميركا التي وصلها المسلمون قبل كولومب ، وأقاموا فيها رداً من الزمن يشيدون البناء ، ويعملون لبناء الفكر ، فجاءت أوروبا باكتشافاتها تطمس هذه الحقيقة ، وتزيل هذا الواقع بإبادتها الفادرة لهم هناك ، وبجريماتها الوحشية بإزالة

كل آثارهم هناك ، وبحقدها الشديد بتشويه التاريخ وبالكذب الصريح ، ولكن بدأت تظهر هذه الحقيقة من خلال بعض الآثار التي وجدت في بعض الخرائب التي فعلتها أيدي الصليبية وأصابع الحقد كما سيتبين ذلك في هذه الرسالة .

ومن هذا المنطلق رأيت أن أوضح بعض هذه المعاني بلا توسع ليستطيع الجميع قراءتها ، ويتسنى لكل طالب حقيقة معرفتها ، وليضع كل منصف يده على مفتاح الحقيقة يتلمسها ، وينطلق منها ، ويبدأ من أول الطريق يسير فيه يطلب المعرفة ويبحث عنها حتى يصل إلى الحق والصواب وهذا هو هدفنا ومبتغانا .

هذه الرسالة في الأصل موضوع محاضرة كنت ألقيتها فاقترح عليّ بعض من سمعها من أساتذة الجامعة والكليات أن أنشرها ليعم نفعها ، فاستجبت لهذا الاقتراح راجياً أن أكون بهذا الرأي قد حققت ما أبغيه من الاستقلال في النظر والفكر فإن وُقِّتَ فذلك فضل الله ، وإن أخطأت فعذري أنني اجتهدت .

والله نسأل التوفيق وسداد الخطى وهو نعم المولى ونعم النصير .

١٠ ذي القعدة ١٣٩٢ هـ .

إن الوقت الذي كانت تسطع فيه شمس المعرفة على ديار الاسلام ، ويشع فيه العلم من هناك ، وتتألق الحضارة الإسلامية ، فتُرسل أشعتها إلى ما جاورها من أمصار لتلهم بين جوانحها ، وتنقذهم من الظلمات إلى النور ، وتخلصهم من الجاهلية العمياء لتدخلهم إلى واقع الإسلام المنير ، في هذا الوقت كانت أوروبا تترنح في الجهل ، وتزح تحت كابوس الظلم ، وتستكين لنير الطغيان ، وتخضع حانية الرأس للطواغيت الجهلة ، وتخنع غامضة البصر عن نور الحق ، وتقبع في عزلة عن كل تيار حضاري ، فكان لا يرتفع مستوى البشر فيها إلى أدنى مستويات الجماعات البدائية اليوم التي ذاقت من أوروبا الويلات منذ أن وقفت على أقدامها .

بدأت أوروبا تنفض عن عيونها غبار الجهل الذي ورثته خلال قرون طويلة خلت بعد أن وصلت إلى بعض مناطقها أشعة الحضارة الإسلامية ، فجلت بسناها تلك الأرجاء ، واستفادت أوروبا بقبس منها ، فالأندلس وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وجزر البحر

الأبيض المتوسط كلها كانت مراكز يشع منها النور والمعرفة على أوروبا ، ومنها كانت الحركات الأولى التي امتدت لتنفض غبار الجهل ، وتخلع حجاب الظلم إضافة إلى ما استفادته أوروبا من احتكاك بالمسلمين في الشرق سواء عن طريق الحروب الصليبية أم عن طريق التجارة الحرة التي سهل المسلمون دروبها لعل الخير يصل عن طريقها إلى بقية الشعوب . فالمسلم لا يريد للعالم إلا الخير .

لكن أوروبا اليوم ترفض حقيقة الأمس ، وتصر على أن أسباب نهضتها إنما يعود لذاتها ونشاط أبنائها ، وتجعل من هروب عدد محدود من علماء الرومان الشرقيين في القسطنطينية عند فتحها على يد محمد الفاتح العثماني رحمه الله ، والتجأهم إلى أوروبا كان عاملاً رئيسياً من عوامل النهضة ، كما تزعم أن اكتشافات جغرافية قام بها رجالها كانت أساس النهضة وسبب التقدم . فهي بهذا ترفض أن تدين بالفضل للحق ، وإنما تدعي أن نهضتها كانت ذاتية ومن أصول أوربية خالصة ، وخاصة ما أسمته بالاكشافات الجغرافية التي هي موضوع محاضرتنا .

لنبحث في هذه الاكتشافات - حسب رأي أوروبا - وما الدوافع التي أدت إليها ؟ وهل كانت اكتشافات فعلاً توصل إليها البشر

أول مرة أم هي ادعاء أوربي وكان البشر على علم بها من قبل ؟
ولما كانت أوروبا قد سيطرت على العالم في حين مضى فقد فرضت
عليه هذه المعلومات الخاطئة حتى أصبحت شبه حقيقة واقعة بين
بقية سكان العالم .

تدعي أوروبا أن الحافز لها في هذه الاكتشافات هو تجارة
التوابل والحصول على المال ، لكن هذا الادعاء لا يستند إلى حقيقة
علمية ، ولا يقبله تحليل صحيح ، فقد كانت الدول التي تدعي هذه
الاكتشافات - إسبانيا والبرتغال - لا تزال أهم أجزائها الجنوبية
في ظل الحكم الإسلامي ، وكان شغل الأسبان والبرتغاليين الشاغل
هو اخراج المسلمين من الأندلس ، ومع هذا فقد وصل البرتغاليون
رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب إفريقيا وهم في غمرة الحروب
مع المسلمين ، إذن كان وصولهم لتنفيذ خطة حربية ، فقد وصلوا
قبل سقوط الأندلس بست سنوات . وكان الأسبان والبرتغاليون
يلقون الدعم الأوربي ، بل كانت أوروبا كلها من ورائهم ، فهل يقبل
والوضع هكذا أن يكون همُّ الأسبان والبرتغاليين الحصول على
التوابل كما تدعي أوروبا ؟ هل يقبل إنسان أن همَّ أوروبا أثناء الحرب
العالمية الثانية الحصول على مادة الفلفل أو الزنجبيل وهي مادة

كجالية غير ضرورية ؟ لو ادعى هذا مؤرخ لاعتبر مجنوناً . فهل نرضى
بعد هذا زعم الأوريين ؟

وأما الحصول على المال فهل يسعى الانسان وراء المال في
مكان مجهول أو يبحث عنه في مكان لا يزال في عالم الخيال ؟
إلا إذا كان هذا في الحلم أو جاء في إحدى الأساطير القديمة
والخرافات الأوربية .

إن حقيقة الدوافع التي تكمن وراء وصول أوربا إلى
ما وصلت إليه من اكتشافات جغرافية بالنسبة اليها إنما كانت
الحروب الصليبية التي كانت ولا تزال يحمل التاريخ لنا صوراً
منها ، ولا يمكن بحث هذا الموضوع دون الرجوع إلى التاريخ
قليلاً لنوضح ما غمض ، ونظهر ما أخفته أصابع الحقد وأبادي التقليد .

في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، وفي وسط
الجزيرة العربية تكونت أمة العقيدة فكانت الفئة المؤمنة الأولى
في تاريخنا هي التي عبثت بالقوى المادية واستهزأت بها ، ولم يمس أكثر
من ربع قرن تلت فيه هذه الجماعة الدروس العملية ، حتى ألهمت
القوى الكامنة في النفوس ، فإذا بها تدك صروح الشر في أعظم
قلعة له ، وتدوس تحت أقدامها كل القوى المادية التي تحطمت أمامها

معلنة الضعف الحقيقي ، ومظهرة أن المادة لا يمكنها أن تقف أمام الروح بأي شكل من الأشكال ، وإذا بأضخم الحصون تنهد ، وأعظم المعاقل تندك ، وأكبر الجيوش تهزم ، وأقوى الدول تخضع ، وإذا بالقلوب القاسية تنفتح للإيمان ، والعقول المتعطلة تتعطش للروح ، وإذا بمجد الفرس ينتهي ، وعز الروم يختفي ، وتعدم من الوجود كل قوة سوى هذه القوة المؤمنة التي أصبحت عملاقة العالم ، تقده بالنور والإيمان ، وتروده بالقانون والأخلاق ، ويستمد منها العدل والقيم ، ويأخذ منها الأمر والتوجيه .

أما قوى الشر فقد هالها الأمر حيث طرقت جحافل الخير أبواب باريس ، وسطع النور في جنوب فرنسا فاستنارت به بعض المناطق ، ولكن ماذا تفعل قوى الشر أمام هذا الانطلاق السريع والتألق البديع ؟ انتظرت وقد سكنت في جحورها وعادت إلى أوكارها ، ولم تستطع أن تبدي حراكا ، فقد لاحظت شيئا لم تعهده من قبل ، ورأت قوة لم تكن تتوقع مثلها في بني البشر ، فأثرت السكون والهدوء . يقول ابن الجوزي : « فلما جاء نبينا ﷺ فقهر الملك ومنع الإلحاد أجمع جماعة من الثنوية والمجوس والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فأعملوا آراءهم وقالوا :

قد ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومُحرقوا ... وأعظم كل بلية علينا محمد ... والآن قد تشاغل أتباعه فمنهم مقبل على كسب الأموال ومنهم على تشييد البنيان ومنهم على الملاهي وعلمائهم يتلاعبون ... وقد ضعفت بصائرهم فنحن نطمع في ابطال دينهم ^(١) .

خلف من بعده هؤلاء المؤمنين خلف أضعوا الجهاد فاستكانوا ، وانصرف بعضهم نحو العلم النظري بكليتهم ، واتجه آخرون نحو العمل يشؤون دنياهم ، وقد ظنوا أن في المادة التي حصلوا عليها دوام قوتهم وبقاء عزتهم ، فتوقف خط سيرهم نحو التقدم والاندفاع ، ووقف خط النور لا يسير ، ولم يشعر هذا الجيل بما يجب أن يشعر ، فقد ورثوا الجاه الواسع ، والوطن الشاسع ، والمال الوفير ، والخير الكثير ، فلم يجدوا شاغلاً لوقتهم غير النزاع ، ولفراغهم غير الضياع ، فبدا الضعف ظاهراً جلياً ، فتحركت قوى الشر من جديد ، وظنت أن الوقت قد حان لها لتتحرك من مكانها ، وتغير مواقعها ، وتنقض على قوى الخير ، عليها تحصل على النصر ، وفكرت وقدرت ، ورأت أن الظرف موات لها في الأندلس أكثر من

(١) القرامطة - ص ٣١

غيرها من بلاد المسلمين ، فإن النزاع فيها أكثر وضوحاً ، والحصام أكثر جلاء ، وإنها تقع على أطراف بلاد الإسلام ، فوجدتها صعبة ، وبعد الشقة مع المشرق كبير ، يضاف إلى أنها أقرب النقاط إلى اوربا التي استقطب فيها أعداء الإيمان قواهم ، فجمعت الجموع ، واستنفرت الحشود ، ورمت بسهمها لتصل إلى غايتها ، فإذا بها تسير نحو مصيرها المحتوم ، وإذا الهزيمة المنكرة مؤكدة لها ، إذ لا تزال في المسلمين بقية باقية من قوة ، استطاعت ان ترد بها الأعداء ، وتسحقهم في معركة الزلاقة الشهيرة عام ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م أيام المرابطين في المغرب الذين قدموا لمساعدة إخوانهم في الأندلس ، ثم أعادت اوربا الكرة أيام الموحدين ، فأعادوا تقديم المساعدة ، وعادت اوربا بالهزيمة المنكرة والخسران المين .

خاب أمل القوى المادية في الأندلس من النصر ، ولكنها ظنت إن كان قد خاب هناك فسيظهر في المشرق ، حيث المجال الواسع ، والأفق الرحب ، وإذا تم هناك النصر حيث مهد الإسلام فقد انتهى الأمر ، وكانت الحروب الصليبية ، حيث اتجهت جموع نحو المشرق لا حصر لها ، وأعداد لا تعرف النظام ، تسير كالسوائم ، تهلك الزرع والضرع ، وتحرق الأخضر واليابس ، لا يجرها إلا

هواها ، ولا يقودها إلا حقدها ، وأكبر مجرميها ، فأخافت السكان
الآمنين الذين تركوا الجهاد ، وقد ارتاعوا من منظرها ، فلم يتعودوا
هذه الممجية ، ولم يخبروا تلك الوحشية ، وهذا ما زادهم ضعفاً ،
وفتح للصليبيين باب الأمل في تحقيق ما يرغبون .

حصل الصليبيون على بعض النصر المؤقت ، والظفر القليل ،
وظنوا أنهم ملكوا البحرين ، وقادوا الثقلين ، فعاثوا في
الأرض الفساد ، وعم الخراب كافة البلاد ، ولم يحسبوا ليوم
كرهية حساباً ، وما هي إلا مدة حتى ثاب المسلمون لرشدكم ،
وأعادوا حساباتهم ، فعادوا إلى دينهم سبب عزتهم وقوتهم ،
فإذا بالصليبيين يرون أنفسهم في البحر فجأة مقهورين مغلوبين على
أمرهم . ففي الإسلام قوة كامنة ، تتجدد على مدى الأيام ،
وكلما حاولت قوة باغية أن تعتدي على المسلمين ، إذا بهم
يدوسونها ، وتخر أمامهم صريعة ، مها بلغت ضخامتها المادية ،
ومها طالت المدة ، فإن للحق جولة يسحق بها الباطل مهما تمادى
في غيه .

عاد الصليبيون إلى الأندلس محاولون مرة ثانية ، فتجددت
الحرب ، وطال الزمن ، وكانت المعارك سجالاً ، وإن كان

الخط العام يسير في مصلحة الصليبيين ، بسبب تفرق المسلمين وتنازعهم . وفي هذا الوقت بالذات بدأ الأسبان والبرتغاليون يعملون ضمن مخططات مدروسة ، وتدعمهم أوربا مادياً ومعنوياً وبشكل قوي جداً .

هذا من جانب ومن جانب آخر فقد انساح المغول من أواسط آسيا نحو شرقها ، فاجتاحوا الصين ، ثم اتجهوا غرباً ، فدخلوا أرض المسلمين ، وانساحوا فيها يخربون ، ويدمرون ، ويحرقون ، ويقتلون ماشاء لهم هواهم ، فازداد ضعف المسلمين وتفرقهم ، وكان رقودهم ونومهم ، وخاصة أن هذا قد جاء بعد الحروب الصليبية والجراح لم تندمل بعد ، والحوافز لم تظهر ، فجاءت الضربة إثر الضربة فأورثت شيئاً من اليأس أعقبه التفكك والإخلاق إلى الأرض . وسيطر المغول على البلاد كما فتحوا شرق أوربا . فلم يستطع سكان المشرق مساعدة إخوانهم في المغرب لما هم فيه .

توقفت فتوحات المغول بعد هزيمتهم في فلسطين أمام المماليك في معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م وتجزأت دولتهم إلى أجزاء يحكم كلاً منها خان مستقل ، ولما كانوا في أرض ذات



حضارة فقد انصهروا فيها ، وتأثروا بها ، فدخل خانات غرب آسيا وأواسطها في الإسلام .

وقام تيمور بتزعم التتار الذين ثاروا على حكامهم المغول ، وورث التتار امبراطورية المغول الشاسعة بعد حروب طاحنة ، ومناورات عظيمة ، واحتفظ تيمور لنفسه بقلب أمير ، وأقام خاناً من أحفاد جنكيز خان في مدينة سمرقند صورة أثرية ورمزاً لتحالف قديم بين المغول والتتار ، وإن كان الأمر مرهوناً كله بيد تيمور .

وبعد موت تيمور عام ٨٠٨ م - ١٤٠٥ م اختلف الأمراء من بعده على العرش ، فتجزأت الدولة الواسعة ، واستحالت قوتها إلى ضعف ، وبدأت الولايات تنفصل عنها . والمناطق الخاضعة لها تتمرد عليها ، بالانفصال تارة وبلاستقلال أخرى ، ومنها روسيا التي تحررت من التتار عام ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م على يد أمير موسكو الذي بدأ يسعى لتأسيس دولة قوية له ، ومنذ تلك الأيام بدأت هذه الدولة الجديدة تظهر في العالم ، وتتضخم تدريجياً.

بعد أن خضعت روسيا للمغول لم يبق منها سوى بعض الإمارات المستقلة ، كانت موسكو أهم هذه الإمارات ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تؤدي الجزية للمغول ، وعندما شعر أمراؤها بالضعف الذي أصاب المغول ، انتقضوا عليهم ، وبدأوا بالتوسع نحو الشرق حيث التتار المسلمون ، وحيث لا يمكنهم التوسع نحو الغرب لأن القبائل الجرمانية كانت في تلك الجهات ذات بأس وقوة ولم تستقر بعد .

استطاعت الامبراطورية البيزنطية التي كان مركزها في القسطنطينية والتي لم تكن قد فتحت بعد للعثمانيين - وإن كانت محاطة بهم من كل الجهات ومهددة بالسقوط في كل لحظة - استطاعت هذه الدولة العجوز أن تثير الصقالة الروس ، وأن تنمي فيهم الروح الصليبية الحاقدة حيث ينتمي كلاهما للمذهب الأرثوذكسي ، وتدعوهم لجمع الأراضي الروسية ، وأبناءها الأرثوذكس ، والانتقام من التتار المسلمين إخوان العثمانيين الذين يهددون عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الارثوذكس ألا وهي القسطنطينية .

لم تمض مدة طويلة حتى زالت الدولة البيزنطية ، وفتحت

عاصمتها أبوابها للمسلمين واندفع العثمانيون بقوة أكبر نحو أوروبا
يزيلون قلاعها ، ويحطمون حصونها ، ويهزمون جيوشها التي تغزوا
أملهم حتى غدوا في وسط أوروبا .

وجدت أوروبا نفسها تقاتل المسلمين على جبهتين ، الأولى في
الشرق ضد العثمانيين ولا تستطيع الصمود أمامهم حيث دولتهم في
أوج قوتها ، ولا يزال رجالهم أولي بأس شديد ، لم تفت في
ساعدهم الرفاهية ، ولم تعبث بهم المدنية . والثانية في الغرب ضد
الأندلسيين ، وقد أضعفهم التفرق وشتتهم النزاع ، وأذهبت ريجهم
الأهواء ، فاحتمال النصر هنا أقوى ، وامكانية الفوز أكثر ، لذا
وجهت أوروبا إهتمامها نحو الأندلس ، ورمت بثقلها هناك .
لكنها قررت في الوقت نفسه أن يستمر الروس في حربهم ضد
العثمانيين والتتار ، وقامت الحروب الصليبية هناك ، وتجلت بشكل
واضح إبان حكم إيفان الثالث الذي أخرج التتار عام ١٤٨٥ هـ -
١٤٨٠ م ، ثم إبان حكم إيفان الرابع الذي سمي بالرهيب بسبب
ما ألحق بالمسلمين من أذى من قتل وذبح جماعي ، وقد استطاع
هذا أن يضم المدن التتارية الكبرى إلى إمارته الواحدة تلو
الأخرى وهي قازان واستراخان وغيرها وكان شعار

الروس آنذاك الاستيلاء على القسطنطينية والمضائق وإعادتها مركزاً للأرثوذكس ، وكانوا يثيرون الشعب في هذه الناحية ، ويستغلون العاطفة الدينية لديه ، ويعتبرون المسلمين جميعاً مسؤولين عن فتحها على يد العثمانيين ، لذا كانت حربهم شديدة على التتار فكانوا عندما يستولون على مدينة يذبجون من أهلها ما استطاعوا ذبحه ، ومن بقي يجلونه ، وكل كان حقدهم شديداً عندما أجلاوا سكان مدينة استراخان ، وأثناء نزوح هؤلاء السكان انتشر الإسلام على أيديهم على طول الطريق التي سلكوها ، ويعتبر الروس أن حربهم مع المسلمين لن تنتهي إلا بعودة القسطنطينية إلى حظيرة الصليب وكقاعدة للمذهب الأرثوذكسي ، والاستيلاء على أرض التتار كلها . ومن هنا يظهر أن أصحاب الفكرة الواحدة والعقيدة الواحدة يرتبط بعضهم مع بعض ارتباطاً قوياً ، مهما بعدت ديارهم ، ونأت أقطارهم ، حيث نرى أن العثمانيين المسلمين عندما انتصروا على الدولة البيزنطية النصرانية ، قام الصقالة النصارى ينتقمون من المسلمين التتار ، بل اعتبرت دولة روسيا الجديدة نفسها وريثة لتلك الدولة التي إُزيلت ، كما نصبت نفسها حامية للنصارى الأرثوذكس ، واعتبرت جميع المسلمين في أية بقعة من

من الأرض مسؤولين عن تقويض الدولة البيزنطية وفتح عاصمتها القسطنطينية .

أما في جبهة الأندلس فقد رأى البرتغاليون ضرورة تطويق المسلمين لإمكانية إحراز النصر ، فقام ملك البرتغال حنا الأول بحملة على المسلمين في مراكش ، واحتل سبته ، وجعل ابنه هنري حاكماً عليها ، لكنهم وجدوا أن التطويق يجب أن يكون عن طريق الوصول الى بلاد لا يسكنها مسلمون ، حتى لا يساعدوا سكان الأندلس بثورات يقومون بها ، فكان الانتقال على السواحل الإفريقية الغربية ، فكلموا وصلوا مكاناً وجدوا فيه مسلمين تركوه واتجهوا نحو الجنوب ، بعد أن يؤسسوا فيه قاعدة ، وأخيراً وصلوا إلى الرأس الأخضر ، ولما وجدوا فيه مسلمين كانت خطوتهم اوسع ، فوصلوا الكونغو ، وتجاوزوا خط الاستواء ، ثم دفعت العواصف بارتلمي دياز نحو الجنوب حتى وصل أقصى الجنوب من القارة الإفريقية ، وتجاوزها حتى وصل إلى السواحل المطلة على المحيط الهندي ، ولما عاد سمى الطرف الجنوبي من القارة برأس العواصف ، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه اسم رأس الرجاء الصالح حيث شعر بأمل في

امكانية تطويق المسلمين ، كان هذا والمسلمون لا يزالون مرابطين في الأندلس .

ضعف أمر المسلمين في الأندلس كثيراً ، واستطاع أخيراً الاسبان والبرتغاليون أن يخرجوهم منها نهائياً ، ولم يكتف الاسبان والبرتغاليون بهذا الاخراج بل أرادوا ملاحقة المسلمين في المغرب ، واخراجهم منها ، وقد تمكنوا من السيطرة على بعض المراكز على شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمال المغرب مثل مليلة ووهران ، كما استولوا على مناطق على شواطئ المحيط الأطلسي في غرب بلاد المغرب ، وبعد ان استقروا في هذه المراكز شعروا بعدم امكانية التوغل نحو الداخل لتمكن المسلمين ، وبعد أن ذهبت نشوة النصر الموقت ببعض حقدهم رأوا أن الاندفاع في الحروب ، والمغامرات في القتال لا تجدي شيئاً بلا تخطيط .

بدأ التخطيط ورأوا أن عليهم :

- ١ - معرفة طرق تجارية غير الطرق التي يسيطر عليها المسلمون ، وبهذا يصل الأوروبيون إلى الشرق ، وينافسون المسلمين الذين يفقدون ما يجنون من أرباح من تجارة يسيطرون على طرقها.
- ٢ - عند الوصول إلى الشرق يجب السيطرة على تلك المناطق لامكانية التطويق والاستعداد التام لقتال المسلمين .

٣- يجب العمل على نشر النصرانية في البلاد التي يدخلونها
وحث النصارى على محاربة الإسلام حرباً لا هوادة فيها .

٤ - الاتصال بنصارى الشرق وحضهم على العمل معهم
لاجتماع جذور الإسلام .

٥ - الاستفادة من كل خلاف بين المسلمين .

كانت البرتغال تتبنى هذه الآراء ، وتعد لها ، وتسعى إلى
تنفيذها ، وكانت قد أرسلت بعض اليهود الذين يجيدون العربية
إلى مصر حيث أظهروا هناك الإسلام ، وتقربوا من الحكام
مستفيدين من أوضاعهم المادية الحسنة ، فاستطاعوا ان يعرفوا
أحوال جيش دولة المماليك أقوى الدول الإسلامية آنذاك ، والتي
تسيطر على شرق افريقية وتساعد المسلمين في حربهم ضد
الأحباش والنصارى ، كما تعرفوا على أوضاع البلاد الداخلية ،
وسرقوا خرائط البحار ، والمعلومات عن الملاحة ، وكيفية
التخلص من منطقة الهدوء الاستوائي التي بقيت لغزاً يصعب
حله لدى الأوربيين حتى تلك الساعة ، حيث تهدأ الرياح في
المنطقة الاستوائية ولا تتحرك السفن التي تسير على الشراع ،
وهي المعروفة فقط آنذاك ، ولا يمكن التنقل إلا في الربيع

شمالاً مع حركة الشمس الظاهرية ، وفي الحريف جنوباً مع تلك الحركة . وعندما أخذ اليهود كل ما يريدون انسلوا من مصر عائدين إلى البرتغال ، وقدموا مالداهم للحكومة ، وبهذا حصلت البرتغال على ما تريد . وما ان خرج المسلمون من الأندلس ، حتى كانت البرتغال قد أرسلت بعثة مؤلفة من ثلاثة مراكب برئاسة فاسكودي غاما - وكانت قد توافرت لديها كل المعلومات عن المنطقة - فوصل رأس الرجاء الصالح ١٤٩٧ م ، والتف حول افريقية ، وسارت سفنه مع تيار موزامبيق شمالاً ، وطلع على المراكز الإسلامية في شرق القارة الافريقية ، فدخل زنجبار عام ١٥٠٩ هـ - ١٥٠٣ م واستولى على مدينة كيلوا عام ١٥١١ هـ - ١٥٠٥ م ، والتقى في مالندي بالرحالة المسلم ابن ماجد الذي دله على طريق الهند . وهكذا يتأكد لنا أن البرتغاليين يريدون الوصول إلى نهاية بلاد الإسلام ليستطيعوا تطويقهم فإن فاسكودي غاما لم يقترب من سواحل بلاد العرب أو ايران أو سجستان ، وإنما اتجه مباشرة إلى الهند ، وتمكن من الوصول إلى كالكوتا ، ولكنه وجد فيها مسلمين ، واستقبل من قبل حاكمها استقبلاً سيئاً ، فأضمر الحقد ، وعاد إلى البرتغال ، ولكنه

عاد بعد مدة على رأس حملة جديدة ، فاتجه مباشرة نحو كالكوتا ،
وضربها بالقنابل انتقاماً لزيارته الأولى لها .

كان البرتغاليون يرغبون في الوصول إلى آخر ديار الإسلام ،
ولكنهم يتسوا من ذلك ، فما وصلوا الى منطقة إلا وجدوا فيها
مسلمين حيث كان المحيط الهندي آنذاك بجزراً اسلامياً خالصاً ،
لذلك فكروا في الانتقام من المسلمين وغزوهم في عقر دارهم في
أرض العرب . ويمكن أن نستشعر الروح الصليبية عند البرتغاليين
في كل الأعمال التي قاموا بها . فإضافة إلى ما قام به فاسكودي غاما
من ضرب كالكوتا بالقنابل ، فقد أغرق سفينة في خليج عُمان
تنقل الحجاج من الهند إلى مكة وعلى ظهرها مائة حاج حيث
أعدمهم جميعاً بعد أن فعل بهم الأفاعيل ، ثم عاد إلى كالكوتا
فأحرق مجموعة من المراكب كانت محملة بالأرز ، وقطع أيدي
وآذان وأنوف مجارتيها . وكان في مدينة كيلوا في شرق إفريقيا
ثلاثمائة مسجد ، دُمِّر معظمها على أيدي البرتغاليين بمجرد دخولهم
المدينة ، وأعلن البرتغاليون بعد انتصارهم على المماليك في معركة ديو
البحرية أنهم سيهدمون الأماكن المقدسة الاسلامية في مكة والمدينة ،
وأنهم سيزيلون معها آخر آثار الاسلام ، وهذا ما جعل العثمانيين

يتجهون نحو بلاد العرب يضمونها إلى دولتهم ليقفوا في وجه البرتغاليين .

ونستطيع أن نحكم على الروح الصليبية التي سادت تلك الاكتشافات بل كانت الدافع الأساسي لها من مشروعات « البوكرك » وأقواله وهو الذي خلف فاسكو دي غاما والذي يعود إليه الفضل في توطيد دعائم الامبراطورية البرتغالية ، فقد كان يقول : إنه يريد انجاز مشروعات من مشروعاته قبل موته وهما :

١ - تحويل مياه نهر النيل إلى البحر الأحمر ليحرم مصر من ري أراضيها ، ويخرب شبكة الري التي كانت قائمة فيها آنذاك .
ومن المعلوم أن مصر كانت أهم دولة إسلامية وقتذاك من حيث موقعها وعدد سكانها وامتلاكها رقعة كبيرة من الأرض حيث كان يتبعها بلاد الشام وبلاد الحجاز .

٢ - تهديم المدينة المنورة في شبه جزيرة العرب ، ونبش قبر الرسول ﷺ ، وأخذ كنوزه حيث كان يتصور أن ضربه مليء بالآلئ والمجوهرات شأن الفاتيكان ، وسرق رفاة الرسول ﷺ ، ويجعلها رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة في فلسطين .
ولننظر إلى خطابه الذي ألقاه قبل هجومه الثاني على مدينة

مالاكا في شبه جزيرة الملايو عام ١٥١٧ هـ - ١٥١١ م حيث يقول ﴿ الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي ستقدمها للرب عندما نظرد المسلمين من هذه البلاد ، ونحمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً ، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة ... إذا استطعنا تخليص مالاكا من أيديهم فستنهار القاهرة ... وستنهار بعدها مكة (١) » .

وإن انتصار البرتغاليين على مالاكا قد هز أوروبا طرباً ، فقد استدعى ذلك إقامة قداس شكر في عام ١٥٢١ هـ - ١٥١٥ م ، وقد قال أحد الخطباء في هذا القداس وهو « كاميلوبورتون » وأمام ليو العاشر : إن هذا سيسهل استعادة القدس ، وفسر كيف أن الصليب وصل إلى أماكن بعيدة ، واتهم سلطان مالاكا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى ، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال القدس (٢) .

ونشم روائح الحقد من الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال

(١) الاسلام في الشرق الأقصى تعريف الدكتور نبيل الطويل

(٢) نفس المصدر

عمانوتيل وملكة الحبشة إليني حيث جاء في رسالة للملكة تقول فيها « باسم الله والسلام على عمانوتيل سيد البحر وقاهر المسامين القساة الكفرة ، تحياتي إليكم ودعواتي لكم ، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند ^(١) ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بارسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المندب ، وإذا أردتم نسيروها إلى جدة أو الطور ^(٢) ، وذلك لتنقيض قضاء تاماً على جرثومة الكفر ، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يبيد الشعوب الاسلامية المتبربرة ، ولما كانت قواتنا متوغلة في الداخل وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضروري ، إذ أنكم أهل بأس شديد في الحرب البحرية » ^(٣) .

يتضح مما سبق أن دوافع الاكتشافات البرتغالية لم تكن

(١) تعتبر الملكة المسلمين في مصر والهند أمة واحدة وهذا شيء طبيعي ، فرباط العقيدة هو الرابطة الطبيعي .

(٢) الطور يقصد بها طور سيناء والمقصود هنا السويس .

(٣) علاقة الدولة المملوكية بالدول الافريقية لحامد عمار .

وراء المعرفة فمن سار وراء المعرفة كان يمتاز بالصفات الانسانية وهذا لم نلمسه أبداً خلال دراستنا ، كما لم تكن وراء التجارة والحصول على التوابل ، فمن كان تاجراً أو غريباً اتصف بالتودد إلى أهل البلاد وحسن الصلة بهم ، وهذا لم نشعر به أبداً من خلال ما ذكرنا ، كما لم تكن وراء الحصول على الذهب والمال لأن هذا لا يبحث عنه في مكان مجهول . إن كل ما قامت به البرتغال لم يكن يدفعها اليه إلا الحقد الصليبي الأعمى في محاولة لتطويق المسلمين والقضاء عليهم قضاء تاماً وهذا ما كنا نشعر به ونتوقع نتيجه قبل الانتهاء من عرض الأفكار .

أما اسبانيا وهي الدولة الأقوى والأكثر سكاناً ، بل عندما نقول اسبانيا فكأننا نقصد البرتغال أيضاً ، ونتيجة لهذا كانت تتلقى مساعدات من اوربا أكبر حيث نجد معظم ملاحها ليسوا من الاسبان ، وإنما من باقي دول اوربا التي كانت ترفد هذه المنطقة بكامل امكانياتها حيث كانت على تماس مباشر مع المسلمين وفي حرب دائمة معهم وإلا لماذا لم تتلق بقية الدول مثل هذه المساعدات ؟ ولماذا لم تقم بمثل هذه الكشوف وكانت أقوى من اسبانيا والبرتغال اللتين كانتا من دول الدرجة الثانية أو الثالثة .

كانت مهمة اسبانيا الالتفاف على المسلمين من ناحية الشرق بينما كلفت البرتغال بالتحرك من الجنوب لإتمام عملية التطويق ، وكانت قد وصلت إلى مسامع الاسبان فكرة كروية الأرض ، وامكانية الوصول إلى الشرق عن طريق الاتجاه نحو الغرب ، كما كانوا على علم أن سفناً مسلمة قد تحركت نحو الغرب ولم تعد ، بل تكررت هذه العملية .

أعطت اسبانيا المعلومات اللازمة لجارتها القادمين إليها من بقية الدول الأوربية ، والمديرين على القتال في مدارس خاصة ، وقد سخنوا حقداً ضد المسلمين ، وملثوا غيظاً من خلال معلومات التاريخ التي ألقيت عليهم مشوهة مغلوطة .

غادر كولومب الجنوبي الأصل اسبانيا ومعه ثلاث سفن في ٣ آب ١٤٩٨ - ١٤٩٢ م ، ووصل جزر كناريا (الخالدات) ، ومنها تابع رحلته نحو الغرب ، وقد أظهر البحارة قلقهم من طول الرحلة ، وثاروا على كولومب ، وطلبوا إليه الرجوع ، ولكنه تمكن بما أثاره في نفوسهم من حماسة ضد المسلمين أن يهدئهم ، وأخيراً وصل إلى جزر الآنتيل في اميركا الوسطى في ١٠ تشرين الأول من نفس العام .

وتكررت رحلات كولومب حتى بلغت أربعاً ، ولكنه لم يستطع خلالها من الوصول إلى الغاية المطلوبة وهي تطويق المسلمين ، لذا ألقى عليه القبض ، وأرسل مقيداً إلى اسبانيا ، واتهم بالتواطؤ ، وأخيراً عفي عنه .

ثم قام أمريكوس فيسبوشي الفلورنسي الأصل برحلة ، وعرف أن ما وصل إليه كولومب إنما هي أرض جديدة بالنسبة إلى أوروبا ، وبدأت حرب الإبادة بالنسبة إلى سكان اميركا الأصليين ، ولا سيما إن وجد بينهم أحد من المسلمين ، ونحن نتوقع أن عدداً من المسلمين كان يقيم هناك - كما سنوضح - ولكن طمست الحقائق ، وأخفيت المعلومات .

ثم غادر ماجلان اسبيلية في ايلول ٩٢٦ هـ - ١٥١٩ م ، وطاف حول اميركا الجنوبية ، ومرّ من أقصى جنوبها من ممر أرض النار الذي عرف فيما بعد باسم مضيق ماجلان ، ودخل المحيط الهادي ، وسار فيه ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، ولم ير خلالها عاصفة ولا يابسة عدا جزيرتين غير مأهولتين ، وقد نقصت منهم المؤن ، وفك بهم المرض ، وأخيراً وصلوا إلى تلك الجزر التي عرفت فيما بعد باسم جزر الفيليبين تخليداً للملك اسبانيا آنذاك فيليب الثاني .

وقبل قدوم الاسبان الى تلك الجزر كان أهلها منتظمين في
كيانات سياسية صغيرة على رأس كل منها حاكم يدعى « داتو »
ويندمج بعضها في كيانات أكبر يحكمها « راجا » .
منذ أن وصل ماجلان إلى تلك الجزر فاحت رائحة الصليبية
حتى ملأت الجو بحقدتها البغيض الذي يحمل معه روائح جثث
الموتى الكثيرة التي لاقى أصحابها حتفهم بأيدي الصليبية . فقد اتفق
ماجلان مع ملك جزيرة سيبو وكان يدعى « هومابون » على أن
يدخل في الديانة الكاثوليكية ، مقابل أن يجعله ملكاً على جميع
الجزر تحت التاج الاسباني ، ورضي « هومابون » بذلك ، وظن
أن ماجلان يستطيع ذلك ما دام يملك بعض الأسلحة النارية
التي جعلته يتكلم من مركز القوة ، ويظن بنفسه أنه ملك الثقلين .
أخذ ماجلان يعمل على تمكين صديقه من السيطرة على بقية
الجزر ، وانتقل الاسبان من جزيرة سيبو إلى جزيرة صغيرة
بالقرب منها ، وكان عليها سلطان مسلم يدعى « لابو لابو » وبمجرد
أن علم الاسبان أن الحاكم مسلم ثار حقدهم وصبوا جام غضبهم على
السكان حيث طاردوا النساء ، وسطوا على الطعام ، فقاومهم
الأهالي ، فأضرم الاسبان النار في أكواخ السكان ، وفروا هارين ..

رفض « لابلو لابلو » المسلم الخضوع لماجلان ، وحرص سكان الجزر الأخرى عليه ، ورأى ماجلان الفرصة مناسبة لإظهار قوته وأسلحته الحديثة حتى يرهب بقية الأمراء والسلاطين ، وذهب مع فرقة من جنوده مزودين بأسلحتهم لقتال « لابلو لابلو » وتأديبه . طلب ماجلان من « لابلو لابلو » قائلاً : « إني باسم المسيح أطلب إليك التسليم ، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد » ، فأجابه السلطان المسلم « لابلو لابلو » : « إن الدين كله لله ، وإن الإله الذي أعبد هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم » . ثم هجم على ماجلان وقتله بيده ، وشتت شمل فرقته ، ورفض تسليم جثته للأسبان ، ولا يزال قبره هناك في جزيرة سيبو شاهداً على ذلك .

تابع نائب ماجلان « دل كانتو » الطريق ، وعاد إلى إسبانيا عن طريق اندونيسيا - رأس الرجاء الصالح ، فوصلها في ١٦ ايلول ١٥٢٩ هـ - ١٥٢٢ م على ظهر سفينة واحدة ، وهي التي بقيت من أصل خمس سفن تألفت منها اسطول ماجلان عند بدء الرحلة ، وصلت وعليها ١٨ راكباً من أصل ٢٦٥ راكباً انطلقوا من اسبيلية .

بعثت اسبانيا أربع حملات أخرى متتابعة ، ومن سوء حظ هذه الحملات أنها نزلت على شواطئ جزيرة منداناو جنوب الفيليبين . حيث يكثر المسلمون ، فقتل أفراد الحملات جميعاً لما أبدوا من حقد وروح صليبية ، إذ أعلن الاسبان صراحة أنهم جاؤوا لتطبيق سياسة هدفها :

١ - توسيع رقعة الممتلكات الاسبانية .

٢ - تنصير سكان البلاد التي يحتلونها .

ولا يخفى على إنسان ما في هذه السياسة من أحقاد وضغائن ، وخاصة على المسلمين الموجودين هناك حيث لا يوجد أمامهم أمام تطبيق هذه السياسة إلا الارتداد و إعلان النصرانية أو الموت الذي لا يزال يلاحقهم حتى الآن .

وهكذا نرى أن الروح الصليبية لم تكن أقل ظهوراً عند الاسبان منها عند اخوانهم البرتغاليين . وهكذا كانت الدوافع الحقيقية لاكتشافات أوربا الجغرافية هي الروح الصليبية الحاكمة كذلك يمكن أن نجعلها تنمة للحروب الصليبية أو فاتحة للحروب الصليبية الجديدة التي عرفت باسم الاستعمار .

حقيقة الاكتشافات الجغرافية

عرفنا الدوافع التي دفعت أوروبا للقيام بما أسمته الاكتشافات الجغرافية ، ولكن يجب أن نعرف الآن ما حقيقة هذه الاكتشافات ، هل أول مرة عرف العالم هذه المناطق التي وصل إليها الصليبيون أم كانت معروفة من قبل ؟ وإنما وصلها الأوربيون بعد أن نفضوا عن أعينهم غبار الجهل لأول مرة فاعتبروها اكتشافات خالدة لم يسبقهم إليها أحد ، وسيطروا بعدها على العالم ، فأملوا عليه ما اعتقدوا ، وأخذ الناس منهم هذا الكلام على أنه حقيقة واقعة ، وقلدهم من سار على نهجهم حتى ساد هذا الكلام وتناقلته المدارس ودور العلم ، وقد آن الأوان لإظهار الحقيقة وإملاء الواقع وتعليم الناس الحق .

إن الاكتشافات التي نريد معرفة حقيقتها هي التي تمت على أيدي البرتغاليين والاسبان في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي مطلع القرن العاشر الهجري ، وهي الوصول إلى رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب قارة إفريقيا ، والوصول إلى القارة الأمريكية .

١ - الوصول الى رأس الرجاء الصالح

دفعت الرياح بسفن بارتلمي دياز نحو الجنوب عام ١٤٩١ هـ - ١٤٨٦ م ، وهو يسير ويتنقل نحو الجنوب لامكانية تطويق المسلمين ، وأسمى أقصى جنوب إفريقية رأس العواصف ، ثم وصله فاسكو دي غاما عام ٩٠٣ هـ - ١٤٩٧ م ، والتف حول إفريقية ، وسائر شواطئها الشرقية متجهاً نحو الشمال ، فكان أكثر شجاعة من سلفه حيث كان المسلمون قد خرجوا من الأندلس والجزيرة للإسبانية والبرتغال .

ظن البرتغاليون - أو هكذا أرادوا - أن أقدامهم أول أقدام تطأ تلك المنطقة ، ولكن كان المسلمون قد ارتادوا تلك الأصقاع أثناء تنقلهم جنوباً على سواحل إفريقية الشرقية التي عرفوها من القديم ، والتي أقاموا على طولها مراكز تجارية لهم ، وكانت مدينة سفالة آخر مركز لهم ، وتقع في موزامبيق اليوم جنوب خط العرض ٢٠° جنوباً ، وليس من المعقول ان يكون هذا المركز آخر مكان وصلوا اليه ، بل لا يكون المركز التجاري عادة آخر مكان معروف بل في مكان متوسط ،

فلا بد أن يكون المسلمون قد تنقلوا جنوباً ، ووصلوا إلى أقصى جنوب افريقية ، خاصة وهم سادة البحر في تلك الأيام ، ويدهم مقاليد التجارة في تلك الجهات ، كما ويذكر البيروني الذي عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ) أن اتصال المحيط الجنوبي (الهندي) بالكبير (الأطلسي) عن طريق جنوب افريقية قائم مما يدل على معرفة المسلمين بذلك ، ولم يكن هذا الكلام وتلك المعرفة دون القيام برحلة أو زيارة ، أو نقل عن زار . ومن المعلوم وكما ذكرنا أن ابن ماجد هو الذي أرشد اسطول فاسكودي غاما في المحيط الهندي ، ورسم له طريق الوصول إلى الهند ، إذ ليس من الممكن أن يكون هذا البحار قد توقف عند سفالة ولا يعرف شيئاً عن المناطق التي تقع جنوبها ، وقد قرأ عن اتصال البحرين في كتب من سبقه إضافة إلى أنه ليس هناك من موانع تحول دون وصول المسلمين إلى أقصى القارة فالموانع تكون عادة عدم اتصال في البر مع وجود مسطحات مائية مجهولة أو اختلاف في المناخ لا يسمح بإقامة البشر ، أو تكون هناك موانع بشرية ، وهذا كله غير موجود ، فالاتصال البري قائم والسفن الاسلامية تمخر عباب المحيط قادمة

وآية ، والمناخ جيد بل ميل نحو الاعتدال كلما اتجهنا جنوباً ،
ولست هناك تجمعات بشرية تحول دون ذلك ، بل إن الفراغ
قائم وسكان تلك المنطقة كانوا على درجة كبيرة من القلة ، وهذا
ما جعل المسلمين لا يصلون إلى هناك بتجارهم إلا نادراً ، مما حدا
بالكثير أن يقولوا بعدم معرفة المسلمين لتلك الأرجاء ، ومحسن
في هذا المجال أن نذكر ما استدل عليه الدكتور ستانلي تيمبور
بعد أن اكتشف قبر في مقاطعة روديسيا على مقربة من نهر
الزامبيز ويعود إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً وقد نقش عليه مايلي :
« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله . هذا
قبر سلام بن صالح الذي انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة في
السنة الخامسة والتسعين من هجرة النبي العربي صلى الله عليه وسلم » .
وقد استدل ستانلي تيمبور من ذلك أن المسلمين قد وصلوا تلك
الأصقاع في جنوب إفريقية ، وأنهم قد استثمروا مناجم الذهب ،
واستدل من آثار عربية أخرى وجدها في تلك البقاع على أن
المسلمين قد استثمروا تلك البلاد زمناً طويلاً قبل أن يصل إليها
البرتغاليون .

وقد أثبت أصحاب الخطط - وبينهم المقرئزي - أن كل سواحل إفريقيا الشمالية والشرقية والجنوبية ، قد كشفها العرب بعد الفتح الاسلامي بزمان وجيز ، على عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين ، في إبان مجد العرب وسعة سلطانهم ، ثم توغلوا في مجاهل النيل والنيجر والكونغو .

وفي بدء الفتوح الاسلامية اجتازت مراكزهم سواحل إفريقيا كلها ، وملكوا الصومال ومباسا وزنجبار وموزامبيق ، وجزائر القمر ، ووسعوا تجارتهم في تلك الجهات ، فاتجروا في الذهب وريش النعام والعاج والتوابل والطيوب^(١) .

وإضافة إلى هذا كله فإن المصريين القدماء قد التفوا حول إفريقيا من البحر الأحمر وعادوا عن طريق جبل طارق الذي كان القدماء يسمونه عمود هرقل ، وذلك في القرن السابع قبل الميلاد أيام الملك تحاو الذي كان عظيم الاهتمام بنشر تجارة مصر في العالم الخارجي^(٢) .

إذن عرف المسلمون أقصى جنوب إفريقيا قبل أن يعرفه

(١) الجغرافيون العرب : مصطفى الشهابي ص ٣١

(٢) الجغرافيون العرب : مصطفى الشهابي ص ١٦ - ١٧ - ١٨ بتصرف

البرتغاليون بمدة طويلة ، وادعاء البرتغال بأنها أول من عرف رأس
الرجاء الصالح هو ادعاء باطل تماماً ، وإنما جاءت معرفتها تلك
لأول مرة بالنسبة لها ولأوروبا ، وكانت قبل معرفة بقية الدول
الأوربية الأخرى التي كانت لا تزال على حالة من الجهل وإن كانت
في أواخر مراحلها .

٢ - الوصول الي أميركا :

عندما رست بواخر امريكوس فيسبوشي على شواطئ القارة
الامريكية التي حملت اسمه عرف أنها أرض جديدة ، لم تطأها
بعد أقدام الأوربيين ، ولم يعلموا بها ، وأنها ليست جزائر الهند
الغريبة كما ظنها كريستوف كولومب الذي سبقه إليها .

ظن الاسبان - أو هكذا أرادوا - أن بواخرهم أول بواخر
وصلت إلى تلك الأرض ، وأن رجالهم أول رجال عرفوا تلك المنطقة ،
ولكن الحقيقة تدحض رأيهم وتكذب ما أرادوا نشره .

١ - عندما وصل الاسبان إلى تلك الأرض وجدوا أناساً
يقيمون عليها ، كما وجدوا حضارات قائمة ، وتعتبر الآن من جملة
الحضارات القديمة المعروفة ألا وهي حضارة الآزتك في المكسيك .
فمن أين جاء هؤلاء الناس ؟ أليسوا من البشر ؟ ألا يعود البشر

إلى أصل واحد وهو آدم؟. إذن وصل الانسان إلى اميركا قبل وصول الاسبان بمدة طويلة ولا يزال تاريخها مجهولاً .

٢- يروي لنا المسعودي خبراً من أخبار مغامرات كثيرة جرت لركوب مياه المحيط الأطلسي إلى آخره فيقول « وينهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار ، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا في أخبار الزمان وفي أخبار من غرر بهم ، وخاطر بنفسه ، ومن نجا منهم ، ومن تلف ، وما شاهدوا منه ، وما رأوا . وإذا برجل منهم من أهل الاندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثهم ، فجمع جماعة من أحداثها ، وركب بهم في مراكب أعدها في هذا البحر المحيط ، فغاب مدة ، ثم اتنى بغنائم واسعة ، وخبره مشهور عند أهل الاندلس » .

٣- ويروي لنا الادريسي خبر الفتية المغرورين وهم ثمانية شبان أبناء عمومة ركبوا المحيط مخاطرين بأنفسهم فيقول « ومن مدينة لشبونة كان خروج المغرورين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا مافيه وإلى أين انتهأوه ... ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغرورين إلى آخر

الأبد . وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فانشؤوا
مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم
دخلوا في البحر في أول طاروس الريح الشرقية (أي هبوبها) ،
فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ
الموج ، كدر الروائح ، كثير التروش (أي الصخور التي لا يكاد
يستترها الماء) ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم
باليد الأخرى ، « وجروا في البحر من ناحية الجنوب اثني عشر
يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه
عد ولا تحصيل ، وهي سارحة لاراعي لها ، ولا ناظر إليها ،
فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها
شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا
لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها ، وساروا
مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا
فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ، لينظروا ما فيها . فما كان
غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك ، فأخذوا ، وحملوا
في مركبهم إلى مدينة على خفة البحر ، فأنزلوا في دار ، فرأوا
بها رجالاً سقراً ، زعروا شعور رؤوسهم ، شعورهم سبطة ، وهم

طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها في بيت
ثلاثة أيام . ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان
العربي ، فسألهم عن حالهم ، وفيم جاؤوا ، وأين بلدهم . فأخبروه
بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان
في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك فسألهم عما
سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم
اقتحموا البحر ليروا مابه من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على
نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : خبر القوم
أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا
في عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من
غير حاجة ولا فائدة تجدي . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدم
خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل ، ثم صرفوا إلى موضع
حبسهم إلى أن بدا جري الرياح الغربية ، فعمر بهم زورق ،
وعصبت أعينهم ، وجري بهم في البحر برهة من الدهر . قال
القوم : قدرنا أنه جري بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا إلى
البر ، فأخرجنا ، وكتفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن
تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ، ونحن في ضحك وسوء حتى

سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحننا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلوا من وثاقنا ، وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابروا ، فقال لنا أحدهم : أنتمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وا أسفني . فسمي المكان إلى اليوم « آسفي » وهو المرسى الذي في أقصى المغرب .

يعتقد بعضهم أن الفتية المغامرين قد وصلوا إلى جزر آصور التي يرجح أنها كانت محاولة عند العرب ، ومنها انتقلوا إلى جزر ماديرا ، وقبض عليهم في جزر كناري (الخالدات) .

ولا يستبعد بعضهم الآخر أن يكون الشاطئ الذي رسوا فيه إحدى جزر أميركا الجنوبية في البحر الكاريبي أو الآنتيل لأن مثل هذه المدة التي قطعوها تحملهم إلى هذه المنطقة ، وأنا من أنصار هذا الرأي لأن :

١ - الأرض التي وصل إليها هؤلاء الفتية سواء كانت أميركا أو جزر كناري ، فإن المسلمين قد عرفوها من قبل ، وكانوا فيها كثرة بدليل وجود الترجمان الذي يتقن اللغة العربية ، ولا يوضع ترجمان للملك في بلاد لا يوجد فيها من يجيد هذه اللغة إلا الترجمان

نفسه ، وهذا يؤكد معرفة المسلمين لأميركا قبل هؤلاء الفتية لمن يعتقد أن وصولهم كان إليها ، ولكن هذه المعرفة كانت بالوصول دون العودة حيث يصعب الإياب بعد أن يلاقي الزاهبون المخاطر والأهوال في ركوب المحيط فيفضلون البقاء .

٢- رؤية الفتية للرجال الشقر ذوي الشعر السبط والقُدود الطويلة وجمال النساء العجيب تلقي ضوءاً إلى أن الوصول كان لأميركا الشمالية ، وليس إلى أميركا الجنوبية أو جزر كناري ، فإن هذه الصفات التي وصفوها إنما تنطبق على سكان المناطق الشمالية من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين .

٣- رواية الملك عن فعل أبيه تدل أن المسافة طويلة والاحتمال الأقوى أن تكون البلاد التي وصلوا إليها أميركا وليست جزر كناري .

٤- تصرف الملك في سجن الفتية ووضع العصائب على أعينهم يدل على معرفة الملك بجهل الآخرين بمكان بلاده ، وصعوبة العودة لطول المسافة والتي دونها لجح البحر ولو كانت المسافة قصيرة مثل جزر كناري ووصلها المسلمون بدليل وجود الترجمان ، لخرت السفن الإسلامية اليم ذاهبة وآية دون مبالاة بالبحر والمسافة .

٥ - تقدير الفتية لسيرهم من المكان الذي وصلوا اليه إلى سواحل المغرب تقدير ليس بصحيح .

٦ - الرواية في نهايتها غير صحيحة ، فلا يمكن أن يتخذ الملك هذه الاحتياطات الكبيرة للتعمية عن بلاده ، ثم يأمر بتوصيلهم إلى الساحل المغربي على ظهر زورق يعود إلى بلاده ، فلربما رآه أحد ، وهذا ما يفسد كل ما وضعه الملك من خطة في سجنهم ووضع العصائب على أعينهم ، بل لربما استدعى ذلك ملاحقة الزورق أثناء عودته . كما يبدو أن الفتية أثناء ذهابهم لم يعرفوا اتجاه سيرهم تماماً فقالوا : إنه جنوب وهو غير ذلك .

وأخيراً نقول : ليست هذه المغامرة أو هذه المحاولة هي الوحيدة بل جرت عدة محاولات بعضها بشكل إفرادي وبعضها بشكل جماعي ، بعضها بصورة شخصية والآخر بشكل رسمي بعلم الدولة ورؤيتها وتخطيطها وإشرافها كما حدث في القرن الرابع الهجري حيث انطلقت مائة سفينة ولم تعد . بعض هذه الرحلات كان بأفراد محدودين وبعضها الآخر بجماعات عديدة ، فلا بد أن يكون قد وصل بعضها واستقر هناك ، وأثر في المجتمع الذي عاش فيه سواء من ناحية العقيدة والدين أم من ناحية البناء والمدنية ، وهذا ما تشير إليه بعض الملاحظات وتؤكدده ، ولكن الأسبان الذين

انطلقوا بروح صليبية قد أزالوا كل أثر لهذا ، وقضوا على المسلمين وأثارهم قبل كل شيء ، وكتبوا الخبر ، حتى نسي تماماً ، ومن بعض ما يؤكّد ذلك :

١ - جاء في مجلة المقتطف ١٣٤٥ هـ شهر آب ١٩٢٦ مقالة ملخصة عن مقالة لبرتن كاين في مجلة العالم اليوم World to day ١٣٤٥ هـ شهر شباط ١٩٢٦ ويتكلم فيها عن كتاب عنوانه إفريقية وكشف اميركا لمؤلفه ليفينر ، ويذكر فيها أن كلمات عربية موجودة في لغات هندو اميركا ، ويقول المؤلف : إن قدم هذه الكلمات يعود لعام ٦٨٩ هـ - ١٢٩٠ م أي قبل قرنين من وصول كولومب إلى اميركا ، وقال أيضاً : إن هناك بعض العمران العربي مثل بناء الأزد وبناء المائة .

٢ - جاء في مجلة المقتطف أيضاً عام ١٣٦٥ هـ عدد شباط ١٩٤٥ مقال لانتاس الكرمي يقول فيه : « وقد اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا اميركا قبل كولومب ، وأشار أصحاب هذه النظرية الى وجود كلمات عربية في لغة هندو اميركا ، وإلى أن كولومب وجد في رحلته الثالثة زنجاً وذهباً إفريقياً في جزر الهند الغربية (اميركا) ، وأن مدينة بعض

الجماعات الهندية في اميركا تشبه المدنية الاسلامية إلى حد كبير ،
ولربما كان هذا الذي جعله يظن أنه وصل إلى جزر الهند .

٣ - حاول عرب السودان الغربي في أوائل القرن الثامن
الهجري أن يبلغوا الشاطئ الغربي من المحيط الأطلسي ، فقد
كانت هناك مملكة اسلامية عظمى في بلاد مالي تعرف باسم بلاد
التكرور وهو أحد أقاليم تلك المملكة الواسعة . وقد حكمها في
أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ملك يدعى « منسى موسى »
وحدث أن أراد ذلك الملك الحج عام ٧٢٤ هـ - ١٣٢٤ م فمر بمصر
وقابل الملك الناصر ، وقدم له ولأتباعه هدايا فاخرة^(١) .

وقد روى مؤلف « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » شهاب
الدين بن فضل الله العمري المتوفى ٧٤٨ هـ ، روى هذا أن أحد
حجابه الملك الناصر سأل هذا الملك عن سبب انتقال الملك اليه
فقال « إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ،
فجهز مائتي سفينة ، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين ،
وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا غايته ، أو تنفذ أزوادهم ،
وحضر مقدها ، فسأله عن أمرهم ، فقال : سارت السفن زمناً
طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له بحرية عظيمة ،

(١) الجغرافيون العرب مصطفى الشهابي ص ٢٥

فابتلع تلك المراكب ، وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتي . فلم يصدق ، فجهز ألفي سفينة : ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ، واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه .

٤ - أكد الدكتور « هوي لزي » استاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا وهو من أصل صيني ، أكد في محاضرة ألقاها في الجمعية الشرقية الامريكية في مدينة « فيلادلفيا » وقد استند في بحثه إلى وثائق محفوظة في الصين ، ويعود عهدا الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، أن المسلمين قد وصلوا الى السواحل الشمالية لاميركا الجنوبية من الطرف الغربي للعالم الاسلامي وبالتحديد من الدار البيضاء ، وقد وصل الدكتور « هوي لزي » الى هذا الرأي بعد أن أنفق ثمانية أعوام في تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات في شتى انحاء العالم .

وقد أيد هذه النظرية كل من « الدكتور لين شبنج يانج » استاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد ، والدكتور « ريتشارد رودلف » رئيس المؤتمر المذكور وقال « والآن ينبغي على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم ، وليبدأوا من هذه المنطقة » .

٥ - عثر مدير متحف البرازيل قبل نهاية القرن التاسع عشر

على صخرة الى جوار مدينة ريودي جانيرو عليها نقوش قريبة الشكل
من الحروف العربية القديمة .

٦ - ذكر رفيق العظم في خطبه ما يلي « وصل المسلمون
الى اميركا قبل معرفتها من قبل الأوربيين بأزمة طويلة فقد أخبرني
ثقة أنه بينما كان جالساً يوماً مع جماعة من الأفاضل عند الدكتور
فانديك الشهير في بيروت ، جاءه البريد ففتحه ، وأخذ يتصفح
الكتب ، فأظهر من واحد منها اندهاشاً عظيماً ، ثم أبرز للجماعة
صورة فوتوغرافية وردت ضمن ذلك الكتاب ، فإذا بها رسم
محراب اكتشف في إحدى الخرائب في اميركا وعليه آيات قرآنية
مكتوبة بالخط الكوفي القديم . »

كل هذا يدل على أن المسلمين قد وصلوا الى اميركا قبل معرفة
الأوربيين لها بفترة طويلة ، وأنهم قد أثروا فيها ، ونشروا دينهم
وحضارتهم ، وأن الصليبيين الأوائل قد أبادوا المسلمين ، وطمسوا
كل آثارهم تقريباً ، وما اكتشف منها الآن فهو ضمن خرائب
فعلتها أيديهم .

وأمام هذا علينا أن نطلق كلمة التوسع الأوربي في اميركا

وجنوب إفريقية بدلاً من كلمة الكشف الجغرافية ، وآثار ذلك التوسع بدلاً من آثار الكشف .

علينا أن نعيد النظر في كل ما كتب في التاريخ والجغرافية سواء ما كتبه الأجانب أم مانقله عنهم كتاب مسلمون . وعلينا أن نهتم بالبحث والتحقيق في مبادئ الحضارات وأصولها وأن نوضح للأجيال القادمة أثر حضارتنا في البناء والعطاء ، وحضارة أوربا في الطمس والاختفاء .

وإذا كان مافلته محاولة لتوضيح حقيقة وتحتاج الى براهين أكثر وأدلة أوضح ، ولربما يأتي بها الزمن إلا أنني قد سلكت الطريق وطرفت الباب وعلى الآخرين المتابعة والبحث للوصول الى الحق وهذا ما ينبغي .

وأخيراً أرجو أن نكون متجربين في أحكامنا هذه وفي متابعتنا للموضوع .

الإسلام والكشوف

إن الإسلام بحث على معرفة كل مجهول على وجه الأرض التي هي في نظره كلها وحدة ، ويحض على كشف ما هو غير معروف في هذه الأرض التي هي كلها مسرح للحياة البشرية ، ويدعو إلى التفكير في خلق الله في السموات وعلى سطح هذه البسيطة التي فيها الحياة كتاب مفتوح تملأه البصائر والأبصار ، والعظة البالغة ينتفع بها قلب التقي فيحقق لها ويتحرك بها ، ويشعر أنه صغير صغير في هذه الأرض والتي هي بدورها صغيرة صغيرة أمام هذا الكون ، فيتملى النظر ، ويمتلئ القلب بعظمة الخالق « قد خلقت من قبلك مئآت من قبلكم تسنفسون في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١) » .

يدعو الإسلام البشر للنفاذ في الأرض والارتقاء في الفضاء ما مكنهم إلى ذلك عقولهم الذي وهبهم الله إياه ، بما يحصلون عليه من معارف بفكرهم ، وبما يجمعونه من معلومات يكتسبونها ، وقد فتح الله لهم صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله فإنهم لن

(١) آل عمران : ١٣٧

يصلوا إلى شيء إلا بإرادة الله وتوفيقه ومدهم بالعون .

إن هذه الصحائف الناطقة بآلاء الله لتجعل الانسان الذي ينتقل من مكان إلى آخر يحاول الكشف عن الغامض والتعرف على المجهول يزداد عمقاً في التفكير بخلق الله وقدرته ، فكلما أطال التجوال وأكثر من التنقل وجد أشياء جديدة ، وتعرف على مخلوقات غريبة ، فازداد إيمانه بالله العظيم الذي خلق هذه المخلوقات ، وأبدع هذه الآفاق ، وأوجد هذه العجائب ، وصور هذا الواقع .

« إن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته ، ويشي بما وراءه من يد تدبره بحكمة ، ويوحى بأن وراء هذه الدنيا آخرة وحساباً وجزاء ، إنما يدرك هذه الدلائل ، ويقرأ هذه الآيات ، ويرى هذه الحكمة ، ويسمع هذه الانبعاثات « أولو الأبواب » من الناس الذين لا يميزون بهذا الكتاب المفتوح ، وبهذه الآيات الباهرة مغضي الأعين غير واعين .

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الاسلامي عن هذا « الكون » والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الانسان والتقامم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الانسان ، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة ، وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه

من « غاية » و « حكمة » و « قصد » من جهة أخرى ... وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من « الكون » و « إله » الكون سبحانه وتعالى .

والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهاً مكرراً مؤكداً إلى هذا الكتاب المفتوح ، الذي لا تقتنا صفحاته بقلب ، فيبتدىء في كل صفحة آية موحية ، تستجيش في الفطرة السليمة احساساً بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب ، وفي « تصميم » هذا البناء ، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق ، ومودعه هذا الحق ، مع الحب له والحشية منه في ذات الأوان ، وأولو الألباب أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ، ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون النوافذ بينهم وبين هذه الآيات ، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، فتفتح بصائرهم ، وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه ، وتترك غاية وجوده ، وعلة نشأته ، وقوام فطرته بالالهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود .

ومشهد السموات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار ، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا ، لو تلقيناه كمشهد جديد

تنتفتح العيون عليه أول مرة ، لو استنقذنا حسنا من همود الإلف ،
 ونمود التكرار ، لارتعشت له رؤانا ، ولاهتوت له مشاعرنا ،
 ولأحسنا أن وراء ما فيه من تناسق لا بد من يد تنسق ، ووراء
 ما فيه من نظام لا بد من عقل يدبر ، ووراء ما فيه من إحكام
 لا بد من ناموس لا يتخلف ... وأن هذا لا يمكن أن يكون
 خداعاً ، ولا يمكن أن يكون جزافاً ، ولا يمكن أن يكون باطلاً .
 ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكوني الرائع أن نعرف
 أن الليل والنهار ظاهرتان ناشتتان من دورة الأرض حول نفسها
 أمام الشمس ، ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكز إلى
 الجاذبية أو غير الجاذبية ... هذه فروض تصح أو لا تصح ، وهي
 في كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر في استقبال هذه العجيبة
 الكونية ، واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التي تحكمها وتحفظها
 وهذه النواميس - أياً كان اسمها عند الباحثين من بني الإنسان -
 هي آية القدرة ، وآية الحق في خلق السموات والأرض واختلاف
 الليل والنهار^(١) . وإن في خلق السموات والأرض واختلاف
 الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً

(١) في ظلال القرآن الجزء الرابع .

وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار» (١).

إن البشر أثناء ترحالهم يرون كيف تتحول الأرض في بعض الأحيان إلى منطقة فيها اضطراب فيرتج كل شيء فوق ظهرها ، ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة ، ذلك عند الزلازل والبراكين .

وكذلك يشهد البشر العواصف الجارحة الحاصبة التي تدمر وتخرب وتحرق وتصعق وهم بازائها ضعاف عاجزون ، وتأخذ كل شيء في طريقها في البر والبحر والجو .

كذلك يرى البشر طوفان الماء وطغيان البحر وتهطل المطر الغزير الذي يسبب جريان السيول الجارفة ، وفيضان المياه العارمة ، وامتلاء المنخفضات ، ويكون هلاك الناس والدواب والشجر . إن هذه المشاهدات فيها الاعتبار وفيها الخوف من الهول العظيم ، وهو لا يعادل شيئاً من هول يوم القيامة ، ولا يساوي شيئاً من ذلك الرعب ، وفيها الإنذار وفيها التحذير بما يصيب ويقع بالأمّة إذا هي عتت عن أمر ربها كما أصابت هذه الأحداث

(١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١ .

الأمم السابقة الذين كذبوا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم » فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ، ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ^(١) . « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين » ^(٢) . « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ^(٣) » .

إن في هذه الأسفار تأمل واعتبار ، دراسة وتجربة ، تأمل للكون والمخلوقات ، واعتبار من تاريخ الأمم السابقة ، ودراسة ما أصابهم لما عتوا عن أمر ربهم وبعد ذلك فهي تجربة على الطبيعة في كل موقع وعلى أي أرض « قد خلت من قبلكم سنن فسبروا

(١) الاحقاف : ٢٤ - ٢٦

(٢) القصص : ٥٨

(٣) ابراهيم : ٤٥

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ^(١) ، « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ^(٢) » ، « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ^(٣) » ، « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ^(٤) » ، « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ^(٥) » ، « أفلم يسيروا

(١) آل عمران : ١٣٧

(٢) يوسف : ١٠٦

(٣) الروم : ٦٠

(٤) فاطر : ٤٤

(٥) هافر : ٢١

في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون^(١) .
 إن التنقل في الأرض في سبيل الحصول على الرزق سواء كان بالتجارة أم باستثمار الأرض كثيراً ما يؤدي إلى كشف المجهول ومعرفة الغامض في مناطق جديدة أو حياة شعوب بعيدة ، كما يؤدي إلى دعوة سكان تلك الأصقاع إلى الإسلام وإنا لنعرف فضل أولئك التجار من المسلمين الأوائل والرحالة الذين جلبوا أرجاء واسعة وآفاقاً بعيدة فعرفوا جزر شرق آسيا وأرخبيلاتها وأطلقوا عليها بلاد الواق الواق أي آخر الدنيا كما دعوا سكانها إلى الإسلام فاستجابوا ، وبهذه الطريقة عم الإسلام ماليزيا واندونيسيا وانتشر في الفيليبين وشرق الصين ، وقد حث الإسلام السير في الأرض والسعي فيها « الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »^(٢) .

إن المسلم في تجواله يتعرف على أوضاع إخوانه المسلمين وأحوالهم ، يشعر بآلامهم بحاجة إليه ، وماهي وسائل النهوض بهم ، يعيش معهم في مصائبهم ، ويشاركهم آلامهم .

(١) غافر : ٨٢ .

(٢) المائدة : ١٥ .

إن التنقل والكشوف تعطي الإنسان معرفة مناطق مجهولة فيدرس السكان وطريقة دعوتهم من خلال عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم وأخلاقهم وعبادتهم ومفاهيمهم وعقيدتهم ومشاعرهم ، وما هو محب إليهم ، وما يكرهونه ، إن هذه المعرفة تمكن المسلمين من دعوة سكان هذه المنطقة التي كانت مجهولة لهم واتخاذ الطريقة التي تناسبهم في الدعوة .

إن الأوربيين قد خصصوا رجالاً منهم في كل الموضوعات التي تهتم معرفتها وبشكل خاص ما يتعلق منها بالعلوم الاجتماعية والوسائل التي يستطيعون أن ينفذوا إلى الأفراد بواسطتها ، وللطرق الكفيلة بالتأثير على المجتمع والخطط اللازمة لجلب الشعب نحوهم ، وما يعطونه من معلومات على دفعات ، وما يقدمونه على غيره ، هذا بعد أن أرسلوا من عرفوا باسم المستشرقين الذين درسوا السكان دراسة وافية ، وتجولوا في مناطقهم ، وخبروا عاداتهم .

هذا من جانب ومن جانب آخر كانت عملية التهديم عن طريق التشكيك في العقيدة في نفوس المسلمين من خلال دس السم خلال الكتب التي وضعها المختصون من الأوربيين ، ويكفي عندهم تقديم فكرة واحدة ضمن أبحاث كتاب كبير يحوي معلومات قيمة

للاقبال على قراءته والتأثر به . ثم أرسلوا المبشرين لبلاد المسلمين
وغيرها بعد أن زودوهم بكل ما يحتاجون إليه من معلومات
جاهزة أمضى البحاث في إعدادها وقتاً غير قليل ، وبما يطلبونه
من إمكانات مادية .

إن الكشف الجغرافية التي يقوم بها المسلمون يمكن أن
تقدم لهم بعض الفوائد في الدعوة ونشرها وزيادة الإيمان في
النفوس لذلك بحث الإسلام على القيام بها والتعرف على كل
مجهول في الأرض التي استخلف الإنسان فيها .

الخاتمة

لم أتوسع في معنى الكشف كما توسع بعض الجغرافيين ، وذلك لأن كلمة كشف ما إن تذكر حتى يتبادر إلى الذهن اكتشاف أمريكا ومعرفة رأس الرجاء الصالح ، وهذا ما قصرت بحثي عليه ، وأكدت على بعض النقاط التي نحن بحاجة إليها اليوم ، اليوم الذي نبغي فيه الاستقلال الفكري والتميز التاريخي ، ولعل أهم هذه النقاط هي العوامل التي دفعت أوروبا للسير وراء هذه المعرفة والاكتشافات ، ووجدت أن التوسع يخرج كلمة الكشف عن معناها المألوف ، ويجعل من قراءة بحوثها المطولة أمراً عسيراً ، ومن فهم مراميها مشكلة صعبة حيث يسير القارئ في متاهات الأسماء الكثيرة التي تمر معه ، وأسماء المناطق العديدة التي يقرأها فتضيع الفائدة ، هذا إضافة إلى أن الموضوع المطول لا يهتم به إلا أصحاب الاختصاص والثقافة ، وهم عندنا - مع الأسف - قلة ، أما الموضوع القصير فيقدم على مراجعته عدد أكبر وربما حصلت من ذلك فائدة أكبر .

وهذه الرسالة أعدت للجيل المتلهف لمعرفة ماضيه ، المتشوق لبحث حضارته السابقة ، الراغب في الفكر الذي يقوده إلى العمل ، ويدفعه إلى الكشف عن الحق ، وبذا تتكامل الطاقات ، وتكون

أحسن النتائج - بإذن الله - . أما المعنى الواسع الذي ذكره الباحثون المحدثون ومنهم الدكتور يسري عبد الرزاق الجوهري في كتابه الذي أخرجه للمرة الثانية « الكشف الجغرافية » فقد تناول فيه المناطق التي وصلها قدماء المصريين وسكان بلاد الرافدين والفينيقيون والاغريق والرومان وأطلق عليها اسم كشف كما بحث الجغرافية في العصور الوسطى وبين تقدم العرب في هذا الميدان ، وذكر أسماء رجالاتهم الذين كتبوا في هذا الباب والذين رحلوا إلى مناطق بعيدة وأطلق عليها اسم كشف ، وبين جهل أوروبا وغفلتها في تلك العصور ، ثم أسباب نهضتها بعد الحروب الصليبية والبعثات التبشيرية التي أرسلتها ، ثم كتب عن الكشف التي تمت على أيدي الاسبان والبرتغاليين ، ورغم تقديري للجهد الذي بذله في إعداد هذا الموضوع إلا أن ما جاء فيه كان تقليدياً لا يختلف عما كتبه الأوروبيون ولا عن الذين أخذوا عنهم وهم معظم الكتاب ، كما أنه أهمل الدوافع التي جعلت أوروبا تسير وراء ذلك وتدفع اسبانيا والبرتغال لما قامت به رغم أنه يمكن أن يستشم من البعثات التبشيرية التي أرسلتها أوروبا عقب الحروب الصليبية التي أشار إليها ، أو أنه ألقى بصيصاً من نور عليه من ثقب صغير لا يكاد يرى ، ولم يجرؤ أن يدخله من بابه الواسع الواضح . ثم يتحدث عن التبشير في آسيا وإفريقية والتوغل في العالم الجديد ، ويتوسع هنا أكثر في معنى الكشف حتى يصل

إلى حد يتحدث فيه عن الكشوف التي تمت على أيدي المستعمرين في سورية والعراق وجزيرة العرب ، كما يشير إلى كشف المناطق القطبية وهي لفئة جيدة ، وينحتم بحثه عن التفكير الجغرافي في العصور الحالية .

إن الكشوف الجغرافية رغم كل هذا لا يزال يفهم من ذكرها معرفة امريكا ورأس الرجاء الصالح ، وإن ما تم حديثاً من معرفة للمناطق القطبية فإنما قد تم بعد توسع الفكر ومعرفة معظم أجزاء الأرض ، وبعد أن أصبحت الوسائل العلمية والمادية ميسرة وتسهل القيام بمثل هذه الكشوف لذا فإن أهميتها دون أهمية الكشوف السابقة والتي استطاع الانسان فيها بوسائله البسيطة من سفن شراعية أن يجتاز المحيط الأطلسي ويغالب الأمواج ، ويتغلب على المخاطر ، ويخاطر بنفسه ، لذا بقيت لها أهميتها ، بل وقادت الذهن إلى الاتجاه نحوها مجرد ذكر كلمة كشوف .

إن الضرورة تقضي بالتأكيد على دراستها بشكل متجرد وتوضيح دور اسلافنا العلمي والعملي والسير في ضحى جديد في تدوين التاريخ والجغرافية وتسجيلها .

وأخيراً نرجو أن تكون أعمالنا خالصة لله ، نبتغي فيها رضاه ، وأن تكون فيها الفائدة المرجوة ، والحمد لله رب العالمين .